

الباب الخامس

منهاج علمي لتنمية موهبة الاختيار
الحر حفاظا على المسؤولية من أى مؤثر
يعوق حركتها

الفصل الأول : النية .

الفصل الثانى : استقلال الشخصية .

الفصل الثالث : استدامة الاستعانة بالله .

obeikandi.com

الفصل الأول

النية

نبدأ « بالنية » في أول فقرة من هذا المنهاج لتنمية موهبة الاختيار الحر ابتغاء رضوان الله أولاً ، فاعتبارات صحيحة تلك التي حرص من أجلها كثير من علماء الإسلام على تقديم النية في تأليفهم ، فإنه لمن أهم الواجبات أن يتحرك الانتباه عند الدارسين والقارئ إلى تجريد القصد لله سبحانه حتى يكون تحصيل العلم أقوى أثراً وأكثر ثواباً وبركة ونفعاً .

فقد روى الإمام أحمد عن أبي سعيد ابن أبي فضالة الأنصاري أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه نادى مناد : من كان أشرك في عمل عمله لله أحداً فليطلب ثوابه من عند غير الله ، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك » ^(١) .

بيد أن إيرادنا للنية هنا ، - في أول فقرة من المنهاج الذي ينمى موهبة الاختيار الحر - يراعى إلى جوار هذا الاعتبار اعتباراً آخر له صلته الوثيقة بحرية المسلم التي هى المحور الأساس في صلاحيته لتحمل المسؤولية ، من حيث إن النية قوة باطنية تأبى الخضوع لأى قيد ينال من هذه الحرية فى أعماق المسلم .

وشرح ذلك فى بساطة :

أنه لا يسيطر على باطن الإنسان أحد سوى الله ، والنية من هذا الباطن ، ولا سلطان لأحد من الناس عليها أبداً ، بل هى آخر معقل يلجأ إليه المسلم إذا غلب على أمره كى ينجو من عقاب الله سبحانه .

وفى الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال : « من رأى منكم منكراً فليغيره

(١) رواه أحمد والترمذى وابن ماجه .

بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان ^(١) .

فالحديث الشريف يقرر في وضوح أن المسلم إذا تعرض لمثل هذه المواقف الصعبة التي تسقط فيها أسلحة الإصلاح باليد واللسان فعليه حينئذ أن يلجأ إلى سلاح النية ، وهو سلاح مُؤَمَّنٌ بالفطرة غير قابل لأن يفل أو يقهر من الخارج أبداً .

ومعنى ذلك أن الإرادة الصالحة التي تحرص على مسئوليتها أمام الله ، عليها أن تتشبث بالنية كحل نهائي لضمان حرية الرأي أو الاعتقاد داخل حصنه السرى المنيع دون أن تنهار الشخصية الحقيقية للإنسان التي هي مبادئه المقدسة ومعتقداته الأصلية ، وهو بهذا السلوك النفسى أو الباطنى يظل مستمسكاً بأمرين :

بجبل الله المتين أولاً ، وهو فى نفس الوقت قد حافظ على حقيقة حريته فى الاعتقاد الذى يرتضيه .

وقد تظاهر القرآن مع السنة وآزرها بوضوح فى تقرير هذه الحقيقة .

قال تعالى : ﴿إِلَّا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] .

قال الإمام ابن كثير فى تفسير هذه الآية : استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرها لما ناله من ضرب وأذى ، وقلبه يأبى ما يقول وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله .

وقد روى العوفى عن ابن عباس أن هذه الآية نزلت فى عمار بن ياسر ، حين عذبه المشركون حتى يكفر بمحمد ﷺ ، فأنزل الله هذه الآية .

وهكذا قال الشعبى ، وقتادة وأبو مالك .

وقال ابن جرير : حدثنا ابن عبد الأعلى قال حدثنا محمد بن ثور قال : عن معمر

(١) رواه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه وأخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبي

قال عن عبد الكريم الجزرى قال عن أبى عبيدة محمد بن عمار بن ياسر قال : أخذ المشركون عمار بن ياسر فعذبوه حتى قاربهم فى بعض ما أرادوا فشكا ذلك إلى النبى ﷺ : فقال النبى ﷺ : « كيف تجد قلبك ؟ » قال : مطمئناً بالإيمان . قال النبى ﷺ : « إن عادوا فعد » .

ورواه البيهقى بأبسط من ذلك ، وفيه أنه سب النبى ﷺ ، وذكر أهتهم بخير ، فشكا ذلك إلى النبى ﷺ فقال : يا رسول الله ما تركت حتى سببتك ، وذكرت أهتهم بخير .

قال : « كيف تجد قلبك » .

قال : مطمئناً بالإيمان .

قال : « إن عادوا فعد » .

وفى ذلك أنزل الله : ﴿إِنَّمَا مَنْ أَكْثَرَهُ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦] .

وهكذا لم يعصم عمار بن ياسر من هذه الفتنة المهلكة سوى نيته التى استطاع بها أن يحافظ على أمور ثلاثة كلها ذات قيمة جوهرية ، وإن تفاوتت فيما بينها القيم : أول ما استطاع عمار أن يحافظ عليه بنيته ، هو رضوان الله سبحانه . وثانيها : حقيقة إيمانه واعتقاده ، وحرية رأيه .

وثالث هذه الأمور التى استطاع أن يحققها عمار بنيته حين أخفى بها عقيدته هو النجاة من العذاب فى بدنه ونفسه حيث استبقاها بمشيئة الله وإذنه لخدمة الإسلام على عهد الرسول ﷺ وخلفائه الأربعة الراشدين من بعده ﷺ أجمعين .

فالقرآن والسنة كلاهما يتفقان على أن النية الصالحة يستطيع العبد بإحسان استعمالها أن يحمى عقيدته ويجرسها من العدوان ، وبهذا تعتبر النية ركناً عظيماً له أهميته الكبرى فى حماية حرية العقيدة عند أشد المخاطر وأحرج الشدائد ، وهذا أكبر

كسب في حياة أصحاب العقائد من المؤمنين ، وإلا فإن الخسارة تكون فادحة لو انهار المرء في أعماقه ومن داخله ؛ لأنه حينئذ يكون قد فقد حرية نهائيا في اعتناق ما يريد ، ولا يوجد في الحياة إصر أو قيد أشد وأقسى من هزيمة العقيدة ، بيد أن النية الخفية قادرة بفضل الله على منع هذا السوء ، إذا ما حرص المسلم على استحضارها وتجديدها واستصحابها حتى يستديم استعلاءه على العوالم الخارجية المناوئة للإيمان والحق دون هواده أو توقف ، مما حدى بالقرآن الكريم أن ينبه إلى اطراد هذا الصراع .

﴿الْم أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يَبْرُكُوا أَنْ يَقُولُوا أَمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ [العنكبوت: ١ - ٢] .

كما جاء في الحديث الصحيح : « أشد الناس بلاء الأنبياء ، ثم الصالحون ، ثم الأئمة ، فالأئمة يبتلى الرجل على حسب دينه ، فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء » ^(١) .

ولكن مهما بلغ عسف البلاء وظلمه فهو غير قادر على اقتحام حصن النية ومخبتها الأمين كي تظل عقيدتنا وصلتنا بالله ومحبتنا لرسولنا ﷺ وأهل الخير والحق ، وبغضنا للشر والباطل والسوء ونفورنا منه ، تظل هذه المعتقدات كلها مقدسات حرة بعيدة عن المنال والهوان .

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [١٣٩] إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [١٤٠] وَلِيَمْحُصَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾

[آل عمران : ١٣٩ - ١٤١]

فوائد أخرى للنية :

على أن هناك نقاطا أخرى ينبغي أن نشير إليها ونلحقها بما سبق في تقرير أن النية

(١) تفسير ابن كثير : أول العنكبوت ، وهو في الصحيح كما ذكر .

واحدة من أركان الحرية الهامة .

أ - أول هذه النقاط هي عملية التدريب المستمرة بهذه النية التي تسبق أعمالنا وأقوالنا جميعا ، فالنية متجددة مادامت حياة المسلم مستمرة بين يدي كل عبادة ، من طهارة أو صلاة ، أو صدقة ، أو صلة لرحم ، أو بر لوالدين ، أو رعاية لجار ، أو وفاء لصديق ، أو زيارة لمريض ، أو سعى على معاش ، أو رحلة حج ، أو تربية لولد ، أو إحسان لزوج ، أو إصلاح لذات البين ، أو رد لغيبة ، أو أمر بمعروف ، أو نهى عن منكر ، أو رفع للأذى من طريق ، أو صوم مفروض ، أو مسنون ، أو إعانة لمحتاج ، أو إغاثة للمهوف ، أو قرض حسن لغارم ، أو تشييع لميت ، أو تسميث لعاطس ، أو التزام بسنة في طعام ، أو شراب ، أو ملابس ، أو خروج ، أو دخول ، إلى غير ذلك من الأعمال الكثيرة التي تجعل التدريب العملي مستمرا ودائما حتى يتطور إلى طبع أصيل في احترام حرية النفس والغير ومعرفة حدودها في إطار من الحب والتعاون والتقدير .

ب - ومن إعجاز الله سبحانه في سر صناعته لهذا الإنسان أن هذه النية إذا التزم فيها المسلم بتعاليم الله وتوجيهات نبيه محمد رسول الله ﷺ فإنها تنشط تفكيره وعقله بصفة مستمرة إلى جوار تنشيط بصيرته الذي سبقت الإشارة إليه .

وهي تنشيط العقل لأنها تلزم المسلم أن يكرر توجه الذهن بصورة دائمة إلى أهداف أعماله ، وتكون هذه العملية الفكرية المتكررة بمثابة تدريب لإعمال العقل والوعى بصورة تلقائية في العمل سببا ونتيجة ، فتصبح عقلية المسلم عقلية علمية في أخذه للحياة ، وليس بخاف ما بين العقل والحرية في الاختيار من الوشائج الأصلية ، والصلات الوثيقة .

ج - وإذا أصبحت عقلية المسلم بهذه المثابة بعد استدامة المسيرة على هذا الهدى الإسلامي ، فإن المسلم حينئذ ينفر كل النفور من التصرفات المترجلة والسلوك الخالي

من الوعي ، أى الخالى من المسئولية ، أو الخالى من النية .

وإذا خلت تصرفات الأفراد من الارتجال واللامبالاة فكيف تصبح آراؤهم وأفكارهم ؟ .

إن التحرر من قيود الارتجال فى حد ذاته عمل عظيم من أعمال الحرية التى تفضى بالأفراد إلى صنع القرار الحر المرتبط بآثاره النافعة والمفيدة . وهذا وحده أخطر عنصر من عناصر ومقومات التنمية المعنوية والمادية .

د - كان الحديث السالف كله عن نية الأفراد ، فإذا يحدث لو لم يقتصر أداء دور النية على أفراد محدودين ، بل تجاوزهم وتعداهم إلى مجتمع بأسره ، أو إلى أعداد كبيرة منه بتعبير أكثر واقعية ماذا يحدث آنئذ ؟

وكيف تكون حرية الناس جميعا فى مجتمع مؤمن ، يغلب على أفراد الإحساس بالمسئولية عن أقوالهم وأعمالهم ، أى كيف تكون حرية الناس فى المجتمع الإسلامى ؟ وكيف تصبح مكانة الأمة الإسلامية ومنزلتها ؟

إن من أعظم الثمرات الجامعة فى التزام هدى الإسلام باستحضار النية الصالحة أنها - أى النية - حين تصبح شعار الأغلبية فى بداية أعمالهم وأقوالهم فإنها ستعطينا فورا وبلا إبطاء تفكيراً متجانساً فى مناشط الحياة بكل اتجاهاتها وتصبح إدارة دفة هذه الأمور بين أطراف المجتمع شباباً وشيوخاً ، ورجالا ونساء ، وحكومةً وشعباً ، وأغنياء وفقراء أمراً مقبولا وميسورا ، فطبيعة النوايا الصالحة أن تتجانس وتتوحد لتجمع بين ذويها مهما كانت مشاربهم وطبقاتهم ونوعياتهم ، وتلك بعض وظائف النية التى توفر بين هؤلاء جميعاً روح المساواة والإخاء والحرية .

إن منهاج السنة فى مسألة النية وحدها له أعظم الثمرات على الأفراد مباشرة فى حرياتهم وبصائرهم وعقولهم وسلوكهم ، وعلى الأمة فى تجميع وسائلها ومناهجها

وتجانس جماعاتها حتى يتحقق التعاون بين الناس جميعا في هذه الأمة ، التي قال الله عنها :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] .

أى إذا التزمت بالطريق المرسوم بها ، والمنهاج الذى شرع لها .

﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨] .

الأحاديث النبوية الشريفة :

١- في شمول النية لجميع قطاعات المناشط والأعمال يقول رسول الله ﷺ فيما رواه الإمام البخارى رحمه الله وغيره من المتحدثين : « إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » ^(١) .

٢- وفي احتفاظ المسلم بباته على الحق عن طريق القلب والنية في حالة عدم قدرته على تغيير المنكر بيده أو لسانه يقول رسول الله ﷺ : « من رأى منكم منكراً فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيذان » ^(٢) .

٣- وفي مطالبة المسلم بتجريد نيته لابتغاء مرضاة الله سبحانه وتحريرها من الشوائب ورد حديث الرسول ﷺ الذى أخرجه البخارى بسنده إلى أبى موسى قال ﷺ : جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله : ما القتال في سبيل الله ؟ فإن أحدنا يقاتل غضباً ويقاتل حمية ؟ فرفع النبى رأسه - قال : وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائماً فقال : « من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله ﷻ » ^(٣) .

(١) البخارى .

(٢) رواه الإمام أحمد في مسنده والإمام مسلم في صحيحه كما أخرجه أبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى سعيد .

(٣) متفق عليه .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلاً قال : يا رسول الله ، رجل يريد الجهاد وهو يريد عرضاً من الدنيا ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا أجر له » ، فأعظم ذلك الناس ، وقالوا للرجل : عد لرسول الله ﷺ فلعلك لم تفهمه ، فقال الرجل : يا رسول الله رجل يريد الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرض الدنيا ؟ قال : « لا أجر له » ، فأعظم ذلك الناس وقالوا له عد لرسول الله ﷺ ، فقال له الثالثة : « لا أجر له » ^(١) .

وعند أبي داود والنسائي عن أبي أمامه رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت إلى رجل غزا يلتمس الأجر والذكر ماله ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ، فأعادها ثلاث مرات يقول رسول الله ﷺ : « لا شيء له » ، ثم قال : « إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً وابتغى به وجهه » ^(٢) .

وأخرج الترمذي عن الوليد بن أبي الوليد أبي عثمان المدائني أن عقبه بن مسلم حدثه أن شفياء الأصبحي حدثه : أنه دخل المدينة فإذا هو برجل قد اجتمع عليه الناس فقال : من هذا ؟ فقالوا : أبو هريرة رضي الله عنه . قال : فدنوت منه حتى قعدت بين يديه وهو يحدث الناس ، فلما سكت وخلا قلت له : أسألك بحق وبحق لما حدثني حديثاً سمعته من رسول الله ﷺ عقلته وعلمته .

فقال أبو هريرة : أفعل : لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله ﷺ عقلته وعلمته ، ثم نشغ أبو هريرة نشغة فمكثنا قليلاً ثم أفاق فقال : لأحدثك حديثاً حدثني رسول الله ﷺ في هذا البيت ما معنا أحد غيري غيره « إلى أن قال » حدثني رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى إذا كان يوم القيامة ينزل إلى العباد ليقضي بينهم وكل أمة جاثية ، فأول من يدعو به رجل جمع القرآن ورجل قتل في سبيل الله ورجل كثير المال فيقول

(١) أخرجه أبو داود ، وابن حبان في صحيحه ، والحاكم باختصار وصححه (حياة الصحابة ج ١ ص

(٢) الترغيب والترهيب ج ٢ ص ٤٢١ والمرجع السابق أيضاً نفس الصفحة .

الله للقارئ .

ألم أعلمك ما أنزلت على رسولي ؟

قال : بلى يارب .

قال : فماذا عملت فيها علمت ؟

قال : كنت أقوم به آناء الليل وآناء النهار .

فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة له : كذبت ، ويقول الله له : بل أردت أن يقال فلان قارئ فقد قيل ذلك

ويؤتى بصاحب المال فيقول الله له :

ألم أوسع عليك حتى لم أدعك تحتاج إلى أحد ؟

قال : بلى يارب .

قال : فما عملت فيها آتيتك ؟

قال : كنت أصل الرحم وأنصدق .

فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبت ، ويقول الله :

بل أردت أن يقال : فلان جواد وقد قيل ذلك .

ويؤتى بالذى قتل في سبيل الله فيقول الله له :

فيما ذا قتلت ؟

فيقول : أمرت بالجهاد في سبيلك ، فقاتلت حتى قتلت .

فيقول الله له : كذبت ، وتقول الملائكة كذبت ، ويقول الله :

بل أردت أن يقال : فلان جريء وقد قيل ذلك . »

ثم ضرب رسول الله ﷺ على ركبتي فقال يا أبا هريرة :

« أولئك الثلاثة أول خلق الله تسعر بهم النار يوم القيامة » ^(١) .

قال الوليد أبو عثمان المدائني : فأخبرني عقبه أن شفياء هو الذي دخل على معاوية ؓ فأخبره بهذا .

وحدثني العلاء بن أبي حكيم أنه كان سيقاً لمعاوية : فدخل عليه رجل فأخبره بهذا عن أبي هريرة فقال معاوية :

قد فعل بهؤلاء هذا ، فكيف بمن بقى من الناس ؟ ثم بكى معاوية بكاء شديداً حتى ظننا أنه هالك وقلنا : قد جاءنا الرجل بشر ، ثم أفاق معاوية ومسح عن وجهه وقال :

صدق الله ورسوله ﷺ : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾ (٥) **أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبِطِلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ^(٢) [هود: ١٦] .

٤- وقد بلغ من حرص الإسلام على صيانة التجرد في النية واهتمامه بثبات هذا الخلق في واقع حياة المسلم مبلغاً جعل السنة المطهرة ترسم لنا سياسة عملية في العادات والعبادات تفضي إلى حراسة النية من ضعف التردد وتحميها من عدم التجرد ، ويتجلى ذلك في الأحاديث الشريفة الآتية :

عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال : « لا تقدموا شهر رمضان بصيام قبله

(١) أخرجه مسلم في الجهاد والإمارة ، وأخرجه الترمذی ج ٢ ص ٦١ .

(٢) قال الترمذی : هذا حديث حسن غريب وقال المنذرى (في الترغيب ج ١ ص ٣٨) : ورواه ابن خزيمة في صحيحه نحو هذا لم يختلف إلا في حرف أو حرفين ، وابن حبان في صحيحه بلفظ الترمذی (كتاب حياة الصحابة ج ٣ ص ١٩٢ - ١٩٤) .

بيوم أو يومين ، الا أن يكون رجل كان يصوم صوما فليصمه » ^(١) والصوم المنهى عنه قبل رمضان هو الصوم للاحتياط والتخوف من كون يوم الشك من شهر رمضان وهذا يجعل نية الصائم غير واضحة فهي مترددة بين كون هذا اليوم الذي صيم احتياطاً من شهر شعبان أم من شهر رمضان .

وهذا الوضع يفتح باباً من أبواب الضعف على وضوح الرؤية وضوحاً كاملاً أمام النية للأمر المراد تقديمه لله سبحانه ، وهذا اللون من الذبذبة لا يستريح إليه الإسلام بحال ، بل يغلق الباب عليه فينهى عن صيام هذا اليوم مؤثراً أن يفطر المسلم فيه على أن يصومه بنية مترددة مذنبه .

ونهاية الحديث واضحة في أن المسلم الذي يصوم هذا اليوم لسبب معتبر آخر فلا مانع من صيامه ؛ لأن الصائم حينئذ سيكون على نية واحدة غير مترددة حيث إنه صائم باعتبار التطوع فقط ، أو بسبب واضح محدد .

ومن أبلغ الدلالات على موقف السنة الحاسم بهذا الشأن أن الاحتمال يكون اليوم الذي أوصت بإفطاره من رمضان وارداً وروداً شديداً ، ووضعت لهذا الاحتمال علاجاً لا بد من تطبيقه على كل مفطر لهذا اليوم .

وفق توجيه الشرع وعلى كل صائم إذا كان صيامه مشروعاً والمستثنى في آخر الحديث ، أو صياماً غير مشروع كالذي يصومه للاحتياط لرمضان .

كل هؤلاء ينطبق عليهم علاج واحد ألا وهو قضاء يوم بدلاً عن هذا اليوم الذي أفطره المسلمون أو صاموه ، حين يتبين أنه كان من رمضان .

ومعنى ذلك أن الذي صام يوم الشك فعلاً لا يجزى عنه هذا الصيام بسبب تردد نيته وعدم تجريدها من الاعتبار الأخرى المصاحبة .

(١) رواه الجماعة ، وقال الترمذى حديث حسن صحيح _ تحفة الأحوذى ج ٣ ص ٣٦٥ .

وبالاختصار فإن الشارع فضل إفتار يوم الشك حتى لو ظهر فيما بعد أنه من رمضان على صيام لا تتضح النية فيه .

ومن هنا كان يستاء الصحابة استياء شديداً من الذى يجهل هذا الحكم فيصوم يوم الشك ويصفونه بالمعصية ، فقد روى الترمذى عن صلة ابن زفر قال : « كنا عند عمار بن ياسر فأتى بشاة مصلية فقال : كلوا ، فتنحى بعض القوم فقال : إني صائم : فقال عمار بن ياسر : « من صام اليوم الذى شك فيه فقد عصى أبا القاسم » ^(١) .

ولعل أبلغ في الدلالة مما ذكرنا على حرص الشارع الحكيم والسنة المطهرة على تجريد النية وتفريغها للعبادة المقصودة ما طلبه الشارع من المسلم من سياسة عملية تستبعد كل الاهتمامات الأخرى بإشباع حاجة النفس منها قبل الشروع في العبادة .

عن ابن عمر قال : قال النبى ﷺ : « إذا كان أحدكم على الطعام فلا يعجل حتى يقضى حاجته منه وإن أقيمت الصلاة » ^(٢) .

وعن عائشة ؓ قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا صلاة بحضرة طعام ، ولا هو يدافع الأخبثين » ^(٣) .

وواضح من هذا الحديث سبب النهى عن الجمع بين الصلاة وغيرها ، حيث يتعلق الاهتمام بشئ مصاحب للصلاة فلا تصفو لها نية المصلى لانشغالها بغير الصلاة .

وهناك حديث يصرح بالسبب تصرّحاً كاملاً رواه البخارى عن أبى الدرداء قال :

(١) قال الترمذى : « حديث صحيح » وأخرجه أيضاً ابن حبان وابن خزيمة وصحاحه ، والحاكم والدارقطنى والبيهقى في المعرفة : إسناده صحيح وتكلم فيه الصاغانى فرد عليه العراقى رداً شافياً (ص ٣٦٥ - ٣٦٧ ج ٣ الأحوذى) .

(٢) رواه البخارى نيل الأوطار ج ٣ ص ١٧٧ .

(٣) رواه أحمد ومسلم وأبو داود .

« من فقه الرجل إقباله على حاجته ، حتى يقبل على صلاته وقلبه فارغ » ^(١) .

وعن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : « إذا قدم العشاء فابدءوا قبل صلاة المغرب لا تعجلوا عن عشاءكم » ^(٢) .

وعن عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال : « إذا أقيمت الصلاة وحضر العشاء فابدءوا بالعشاء » ^(٣) .

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ : « إذا وضع عشاء أحدكم وأقيمت الصلاة فابدءوا بالعشاء ولا تعجل حتى تفرغ منه » ^(٤) .

إن هذه الأحاديث مجرد أمثلة تمثل اتجاهها أصيلاً ومستمرراً في محاربة تردد النية . ففى النهى عن الوسوسة أثناء الوضوء والاعتسال توجهات للسنة كثيرة .

وفى النهى عن الوسوسة والشك فى الطهارة أيضاً أحاديث كثيرة بعضها يطالب فى سبيل محاربة الشك والتردد بعدم الوضوء إلا من سماع صوت الناقض أو وجود رائحته .

ومثل ذلك البناء على العدد الأقل فى الصلاة عند الشك مع طرح الشك كلية وإبعاده . وأيضاً وجوب إتمام العمل بعد توجه النية وابتدائه .

فكل ما ذكرناه وغيره من منهج عملي لحراسة النية من دواعي ضعفها أو شغلها بما لا يجعلها متجردة فى وسيلتها وغايتها إلى الله سبحانه ، فهى متحررة من كل شئ إلا من التوجه إلى الله سبحانه بعبادة مخصوصة ، وهى تشكل بهذا الاعتبار أساساً فى

(١) رواه البخارى .

(٢) متفق عليه .

(٣) متفق عليه .

(٤) متفق عليه .

قوة المشيئة ، ومضاء الاختيار .

وصدق الله العظيم : ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ﴾ [الأحزاب: ٤] .

٥- وفي النية باطن خفى وسر مغيب لا يقع تحت سيطرة بشر مهما كان هذا البشر ، وأن الله وحده هو الذى يعلم سر النية ويترك أمرها إليه سبحانه ، يقول رسول الله ﷺ فيما رواه البخارى عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إله إلا الله ، فإذا قالوها وصلوا صلاتنا واستقبلوا قبلتنا ، وذبحوا ذبيحتنا فقد حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله » ^(١) .

ونرى في هذا الحديث الشريف قاعدة إسلامية واضحة تحرص السنة النبوية الطاهرة على تقريرها .

تلك القاعدة أن الحكم على الناس بالظاهر والله يتولى السرائر .

٦- وإذا كانت السرائر صالحة والنوايا طيبة فإن السنة تؤكد حصول المرء على ثواب نيته ، ولو عاقته العوائق عن تنفيذ ما انتواه ، وفي هذا المعنى نختر الأحاديث الآتية : قال الإمام البخارى رحمه الله : حدثنا سليمان بن حرب قال حدثنا حماد هو ابن زيد عن حميد عن أنس رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان في غزاة فقال : « إن أقواماً بالمدينة خلفنا ، ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه ، حبسهم العذر » ^(٢) .

وعن حنيف عن النبي ﷺ أنه قال : « من سأل الله الشهادة من قلبه صادقاً ، بلغه الله منازل الشهداء وإن مات على فراشه » ^(٣) .

وعن أبى كبشة الأنصارى أنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « ثلاث أقسم عليهن :

(١) رواه البخارى ج ١ ص ٧٣ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

(٢) رواه البخارى ج ٤ ص ٢٢ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

(٣) أخرجه الترمذى واللفظ له وقال : حسن غريب وأخرجه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه والحاكم (ص ٢٩٤ ج ٥ تحفة الأحوذى) .

ما نقص مال عبد من صدقة ، ولا ظلم عبد مظلمة صبر عليها إلا زاده الله عزاء ، ولا فتح عبد باب مسألة إلا فتح الله عليه باب فقر أو كلمة نحوها ، أحدثكم حديثاً فاحفظوه : إنما الدنيا لأربعة نفر : عبد رزقه الله مالا^(١) وعلماً فهو يتقى ربه فيه ، ويصل به رحمه ، ويعلم الله فيه حقاً فهذا بأفضل المنازل .

وعبد رزقه الله علماً ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان بنيت ، فأجرهما سواء .

وعبد رزقه الله مالا ولم يرزقه علماً يخبط في ماله بغير علم ، لا يتقى فيه ربه ولا يصل فيه رحمه ، ولا يعلم الله فيه حقاً فهو بأخبث المنازل .

وعبد لم يرزقه الله مالا ولا علماً فهو يقول : لو أن لي مالا لعملت فيه بعمل فلان فهو بنيته فوزهما سواء^(٢) .

وروى أبو داود قال : حدثنا القعنبي عن مالك عن محمد بن المنكدر عن سعيد بن جبير عن رجل عنده أن عائشة زوج النبي صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم أخبرته أن رسول الله ﷺ قال : « ما من امرئ تكون له صلاة ليل يغلبه عليها نوم إلا كتب له أجر صلاته وكان نومه عليه صدقة »^(٣) .

وأخرجه الحاكم بصيغة : « ما من امرئ يقوم الليل فغلبته عينه حتى يصبح ، كتب له مانوى وكان نومه عليه صدقة من ربه »^(٤) .

وروى الإمام أحمد في مسنده عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « ما

(١) تظهر أهمية المال وأهمية تصرفات المسلم المالية كمقياس وميزان دقيق في مجال المسئولية .

(٢) أخرجه الترمذى وقال هذا حديث حسن صحيح وأخرجه أحمد وابن ماجه (ص ٦١٥ - ٦١٧ تحفة الأحوذى) .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ، والنسائي والبيهقى واللفظ لأبى داود .

(٤) كتاب المهمل العزب المورود ، شرح أبى داود ج ٧ ص ٢٣٩ .

أحد من الناس يصاب ببلاء في جسده إلا أمر الله ﷻ الملائكة الذين يحفظونه فقال :
اكتبوا لعبدي كل يوم وليلة ما كان يعمل من خير ما كان في وثاقي» ^(١) .

وعن أبي هريرة ؓ عن رسول الله ﷺ قال : « قال رجل لأتصدق بصدقه
فخرج بصدفته فوضعها في يد سارق ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق على سارق!!!
قال : اللهم لك الحمد على سارق ، لأتصدقن بصدقة . فخرج بصدفته فوضعها
في يد زانية ، فأصبحوا يتحدثون : تصدق الليلة على زانية!!!

فقال : اللهم لك الحمد على زانية ، فقال لأتصدقن ، فخرج بصدفته فوضعها في
يد غني فأصبحوا يتحدثون : تصدق على غني!!!
فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى سارق وعلى غني .

فأنتى فقيل له : أما صدقتك فقد قبلت ، أما الزانية فلعلها تستعف به عن زناها ،
ولعل السارق يستعف به عن سرقة ، ولعل الغني أن يعتبر فينفق مما آناه الله ﷻ » ^(٢) .

وعن أنس : « أن رجلاً قال لرسول الله ﷺ : إذا أديت الزكاة إلى رسولك فقد
برأت منها إلى الله ورسوله ؟ قال : « نعم ، إذا أديت إلى رسولي فقد برئت منها إلى
الله ورسوله ، فلك أجرها ، وإثمها على من بدّلها » ^(٣) .

وعن أبي سعيد أن النبي ﷺ قال : « كان فيمن قبلكم رجل قتل تسعة وتسعون
نفساً ، فسأل عن أعلم أهل الأرض ، فدل على راهب فأتاه فقال : إنه قتل تسعة
وتسعون نفساً فهل له من توبة ؟ فقال : لا ، فقتله فأكمل به مائة . ثم سأل عن أعلم

(١) أورده المنذرى وقال رواه أحمد واللفظ له ، والحاكم وقال على شرطها أ. هـ ، للفتح الرباني لترتيب
المسند للشيخ الساعاتي الجزء الخامس (ص ١٤٤ ، ١٤٥) .

(٢) متفق عليه : وفي رواية الطبراني : « فساء ذلك فأنتى في منامه » ، وكذلك أخرجه أبو نعيم
والاسماعيلي (ص ١٧٣ ج ٤ نيل الأوطار للشوكاني مكتبة الخليلي) .

(٣) رواه أحمد المصدر نفسه ج ٤ ص ١٧٤ .

أهل الأرض ، فدل على رجل علم فقال : إنه قتل مائة نفس فهل له من توبة ؟ فقال : نعم ، من يحول بينك وبين التوبة ؟ انطلق إلى أرض كذا وكذا فإن بها أناسا يعبدون الله فأعبد الله معهم ، ولا ترجع إلى أرضك فإنها أرض سوء .

فانطلق حتى إذا نصف الطريق أتاه الموت ، فاختصمت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب . فقالت ملائكة الرحمة : جاء تائباً مقبلاً فقبله الله . وقالت ملائكة العذاب : إنه لم يعمل خيراً قط . فأتاهم ملك في صورة آدمي فجعلوه بينهم ، فقال : قيسوا ما بين الأرضين ، فإلى أيهما كان أدنى إلى الأرض فهو له . فقاموا فوجدوه أدنى إلى الأرض التي أراد فقبضته ملائكة الرحمة « (١) » .

٧- وللنية عمل هام آخر لا يقل أهمية إن لم يزد عن منح المسلم ثواب الأعمال التي تمنعه الأعذار المعتبرة من أدائها وهو ما سبق بيانه في الفقرة السالفة مباشرة .

أما الأمر الهام الذي تصنعه النية في المسلم الحريص على صلاح نيته ، فذلك هو تحويل الأعمال التي يظنها الناس أعمالاً دنيوية أو ترفيفية بحثة إلى أعمال تعبدية يثاب عليها صالحوا النية ثواباً عظيماً بالإضافة إلى المتعة التي حصلوا عليها من أعمالهم ، حيث تتحول الحياة كلها مع هذه النية الصالحة إلى محراب فسيح واسع يعبد الله في جميع أرجائه بكل منشط من منشط الإنسان حتى ما تعلق منها بتناول الإنسان لذائد الأطعمة والمأكولات والأشربة ، أو ما تعلق بمنشطه الرياضية في حديقة أو حقل أو ملعب ، أو ما تعلق بحاجات الجسم الأخرى من نوم أو جنس أو تجميل أو ملابس . كل ذلك وغيره كثير يتحول بالنية إلى أعمال مرضية لله ينال عليها المسلم أجر العابدين .

وحين يتدرب المسلم على هذه الحياة الجميلة ويتعودها ، فإنه لا محالة يستشعر اطمئننا لمعية الله سبحانه ، وإذا كان الله معه بالنعمة والرعاية في كل شيء فما الذي

يخافه ويخشاه ؟ ومن إجابة هذا السؤال ينبثق معين من حرية الوجدان والباطن لا تلبث أن تترك انطباعها الواضح في سلوكه الآمن المطمئن لخير نفسه والناس من حوله ، وشعوره بالرضا واليقين ، فيختار ما يختاره له الله . ويصبح من الذين رضى الله عنهم ورضوا عنه .

وهذه بعض الأحاديث النبوية الشريفة الصريحة الدلالة على هذا الاتجاه :

« إنك لن تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت عليها ، حتى ما تجعل في (في) امرأتك » ^(١) .

وروى البخارى أيضاً أن رسول الله ﷺ قال : « إذا أنفق الرجل على أهله (يحتسبها) فهو له صدقة » ^(٢) .

ولنتأمل الصورة التي رسمها الحديث النبوى الأول عن زوج يداعب امرأته فيضع في فمها طعاماً فإنه يؤجر ويثاب . ولكن لابد من تأمل العبارتين الواردتين في الحديثين الأول والثاني الخاصتين بالنية كشرط للفوز بهذا الثواب .

فعبارة : « تبتغي بها وجه الله » ، في الحديث الأول ، وكلمة : « يحتسبها » ، في الحديث الثاني تقطعان بأن هذا الثواب بسبب النية الصالحة .

وصور النية الصالحة التي يمكن أن تجتمع مع المتعة ويثاب عليها المسلم كثيرة جداً ، وهذه الأحاديث مجرد أمثلة لها ؛ لكنها جميعاً على أى حال تصقل المشيئة في اتجاه الحكمة ، وتسدد الاختيار إلى الصراط المستقيم ، وتضع المسؤولية في مكانها الأمين ، وتحمى بقوة تنمية القيم روحياً ومادياً في كل اتجاه .

(١) متفق عليه واللفظ للبخارى ج ١ ص ١٧ طبعة مكتبة النهضة بمكة ، و« في امرأتك » ، أى : فمك امرأتك .

(٢) البخارى ج ١ ص ١٧ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

الفصل الثاني

استقلال الشخصية

في المنهاج العمل لتنمية المسؤولية وحرية الاختيار والمشيئة في الإنسان جاء القرآن الكريم بالقواعد العملية التي تحقق هذه الأغراض . فهو أولاً يطلب من الناس أن يكون إيمانهم شخصياً ومستقلاً عن التأثير بالوراثة الضارة أو البيئة السيئة ممثلتين في الآباء والأجداد وأعراف المجتمع وتقاليده .

قال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَىٰ الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴾ [المائدة: ١٠٤] .

ومع ملاحظة وصايا القرآن بالوالدين في مواطن كثيرة إلا أنه حرصاً على استقلال الشخصية في العقيدة والإيمان حذر من متابعتهم على باطلهم ووصفهم بأنهم لا يعلمون ولا يهتدون ليحطم هيبة الباطل والضلال فيهم من نفوس أبنائهم كي يتحرروا من هذه التبعية لهم إذا كانوا على غير حق .

ونظرة في وصايا لقمان ، التي سجلها القرآن ، تكشف لنا كيف جمع القرآن بين حقوق الآباء واستقلال شخصية الأبناء :

قال تعالى : ﴿وَلِإِنْ جَاهِدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [لقمان: ١٥] .

والرسول نفسه ﷺ - وهو أولى بالمؤمنين من أنفسهم وآبائهم - أمره ربه أن يقول للناس بنص القرآن : ﴿قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ ﴾ [الأنعام: ١٠٤] .

ويطلب القرآن الكريم من المؤمنين به أن يكونوا مستقلين متميزين عن الكافرين والمجرمين بنصوص صريحة واضحة :

قال تعالى : ﴿ قُلْ يَأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴿١﴾ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٣﴾ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدْتُمْ ﴿٤﴾ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ﴿٥﴾ لَكُمْ دِينُ كُرُوا لِي دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ١-٦]

وانظر ما في التكرار من إصرار على التميز والاستقلال ، ومعروف أن خطاب النبي ﷺ خطاب لأُمَّته .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَا تَسْأَلُونَ عَمَّا أُجْرَمْنَا وَلَا تَنْسَلُ عَمَّا نَعْمَلُونَ ﴾ [سبا: ٢٥] .

ويطرد هذا الأسلوب - ليس فقط في الفئات الكافرة والعناصر الضالة - وإنما لو دعت الضرورة إلى التميز والاستقلال عن المجتمع كله في حالة انحرافه وفساده ، فإن المؤمن لا يتردد والحالة هذه من مواجهة المجتمع كله بالاستقلال عنه ، حتى يمنع الإسلام أبناءه جميعاً ، فرداً فرداً وأسرة أسرة ، من التفريط في استقلال شخصيتهم ، ويحذرهم من التبعية للغير أو مما لأته في الخطأ والشر والإثم .

فاستقلال الشخصية طريق ضروري لتحرر المسلم من التبعية للبيئة المنحرفة مهما كان تيارها جارفاً ، وسنختار نصاً من السنة يعالج تفسير آية كريمة تشدد في حماية النفس من مضرة الضلال عند الغير .

ومع صراحة النص القرآني في دلالة على هذا الاتجاه فقد تأوله بعض الناس على غير وجهه ، لكن السنة بينت الوجه الصحيح لتفسير الآية .

خطب المسلمون أبو بكر رضي الله عنه فقال : أيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ، وإنكم تضعونها على غير موضعها ، وإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الناس إذا

رأوا المنكر ولا يغيرونه يوشك الله عز وجل يعمهم بعقابه «^(١) .

ويلاحظ هنا أن الصديق عليه السلام في استشهاده بهذا الحديث النبوي الشريف لم يكتف بعدم متابعة المسلم للخطأ العام ، وإنما يرى مواجهة الخطأ والتصدي له ، وهي درجة تفوق مجرد التحرر من التبعية وعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم .

لكن الحديث الآتي الذي يرويه الترمذى وغيره يعطى شيئاً من التفصيل عن دلالة الآية الكريمة على مجرد التحرر من التبعية والحفاظ على استقلال الشخصية ، فقد قال الترمذى : عن أبي أمية الشعبانى قال : أتيت أبا ثعلبة الخشى فقلت له : كيف تصنع في هذه الآية ؟ قال : أية آية ؟ قلت : قول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ .

قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً ، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال : « بل ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً وهوى متبعاً ودنيا مؤثرة وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع العوام ، فإن من ورائكم أياماً ، الصابر فيهن مثل القابض على الجمر ، للعامل فيهن أجر خمسين رجلاً يعملون كعملكم » .

وفي رواية قيل : يا رسول الله : أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ قال : « بل خمسين منكم »^(٢) .

فمواقف المسلم ثلاثة كلها تنسم بحرية الشخصية واستقلالها : موقف تسمح حالة المجتمع بتغيير المنكر وهو عزيمة واجبة الأداء ، وموقف لا تسمح حالة المجتمع بالتغيير ، والرخصة هنا لا تتجاوز بحال درجة الاستقلال عن المجتمع ،

(١) رواه أحمد وأصحاب السنن وابن ماجه .

(٢) الترمذى وأبو داود وابن ماجه .

وموقف لا تسمح فيه حالة المجتمع بالتغيير ، لكن المسلم لا يترخص بالاستقلال فحسب إنما يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولا شك أنها أعلى المراتب وأكثرها مثوبة وأجراً لما فيها من بلاء أشد ، وصبر على أذى الخلق ، ويترتب على الاستقلال في اختيار المنهاج ، الاستقلال في تحمل التبعة .

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتَضِعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِجَاءِكُمْ بَلْ كُنْتُمْ ثَجْرًا مِّنْ ﴾

[سبا: ٣١-٣٢]

وقال تعالى : ﴿ مَن عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ ۖ وَمَن أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَمَلِ ﴾

[فصلت: ٤٦]

وقال تعالى : ﴿ يَأْتِيهَا النَّاسُ اتِّقُوا رَبَّكُمْ وَأَخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَارٍ عَن وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْفُرُورُ ﴾ [لقمان: ٣٣] .

وقال تعالى : ﴿ يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٢١﴾ وَأُمِّيهِ وَأَبِيهِ ﴿٢٢﴾ وَصَلْبِيهِ وَبَنِيهِ ﴿٢٣﴾ لِّكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴾ [عبس: ٣٤-٣٧] .

وقال تعالى : ﴿ وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلَزَمْنَاهُ طَلْفَهُ فِي عُنُقِهِ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا ﴿١٣﴾ اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴿١٤﴾ مَن أَهْتَدَىٰ فَأَمَنَّا يَهْتَدِ لِنَفْسِهِ ۖ وَمَن ضَلَّ فَلَا تَنصِبْ لَهُ عَلَيْهَا وَلَا نَزْرٌ وَلَا زِدَةٌ وَذَرَّ أُخْرَىٰ ۖ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾

[الإسراء: ١٣-١٥]

وقال تعالى : ﴿ وَبَرِّزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعِفَتُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا

فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَّيْنَا اللَّهُ لَهَدَيْتُكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجْرُ عَنَّا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحْصِرٍ ﴿٢١﴾ [إبراهيم: ٢١].

وقال تعالى : ﴿إِذْ تَبَرَأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَعَتْ بِهِمْ الْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦].

الأسباب : جمع سبب وهو في الأصل الحبل والمراد به هنا الوشائج من القربات والمودات .

وقال تعالى : ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرِينَهُمْ لَوْلَئِنَّهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَصْلُونَا فَنَارِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٍ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٨﴾﴾ وَقَالَتْ أُولَئِهِمْ لِأُخْرِينَهُمْ فَمَا كَانَتْ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ ﴿٣٩﴾﴾ [الأعراف: ٣٨ - ٣٩].

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُمُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنَا بِمُصْرِخِيكُمْ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

موقف السنة المطهرة :

من أهم الأسباب التي عنيت بها السنة المطهرة لتأكيد حرية المسلم في اتخاذ قراراته تحرره من التبعية تحريراً كاملاً ، وإبعاد المؤثرات الخارجية التقليدية جميعها عن جواهر آرائه ومعتقداته سواء كانت هذه المؤثرات تاريخية أو عرفية أو اقتصادية أو اجتماعية أو عائلية .

ومن هنا كانت القواعد الأساس في كيفية تحمل المسلم لمسئولية الشريعة أن تكون مسئولية مباشرة وشخصية حتى لا يرتبط المسلم بمعوق ما يعوقه عن الموقف الذي يمليه الحق ويقتضيه الواجب .

والذى نريد أن نخلص إليه دون استطراد لا تدعو الحاجة إليه هو القول بأن « استقلال الشخصية في تحمل المسؤولية » أمر يسهم في دعم الحرية التى تعتبر بحق ركنا هاما من أركان المسؤولية عن تنمية النفس والغير ذاتيا واجتماعيا . وقد جاءت الأحاديث النبوية في هذا المعنى واضحة وضوح الشمس تساندها وتؤيدها طائفة كبيرة من الآيات القرآنية ذات الدلالة الصريحة المحددة .

فقد روى الإمام البخارى رحمه الله قال : حدثنا قتيبة ابن سعيد قال : حدثنا ليث عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة رضي الله عنها : أن قريشاً أهمهم شأن المرأة المخزومية التى سرقت فقال ^(١) : ومن يكلم فيها رسول الله ﷺ ؟

فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله ﷺ فكلمه أسامة ، فقال رسول الله ﷺ : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » ، ثم قام فخطب ثم قال : « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها » ^(٢) .

وفي الحديث الشريف أمران ساعدا على ستر أغواره وأعماقه البعيدة على ما فيها من سر وسهولة .

أحد الأمرين : أن الحديث يكثر استعماله والاستشهاد به ، وكثرة الاستعمال تحدث في الغالب نوعا من الإلف والاعتیاد لا تلبث الحواس معها أن تفقد حدة التأمل والنظر .

وثانى الأمرين : أن الحديث واضح وضوحاً شديداً ، والأمر الواضح يغرى في الغالب بعدم التأنى في استكناه دقائقه .

(١) عند أبى ذر والكشميهنى : فقالوا .

(٢) متفق عليه واللفظ للبخارى ج ٤ ص ١٤٠ طبعة مكتبة النهضة بمكة .

ولكن من الخير أن نحفظ بصحبة الوضوح والإلف في نظرنا لهذا الحديث الشريف مع التخلص من هذه المساوئ التي تعلق بهما ، وحينئذ ستعطينا هذه النظرة بعض ما في الحديث من معان تشد حاجتنا إليها في تصوير المسؤولية الإسلامية على وجه أدق .

أولاً : كان من العرف عند العرب أن من الفضائل المؤكدة إجارة المستجير الغريب مهما كان مسرفاً على نفسه وعلى مجيره من المخاطر والمهالك ويكفى أن يلجأ الغريب أو يستجير المستجير حتى تجب له الحماية دون سؤال عن وجه الحق أو الباطل .

أما حين يتعلق الأمر بالعشيرة فهنا تشد الحمية ويتضاعف أمرها فإذا اقترب الخطر من الولد فلا تسأل عن أناة أو رشد ، فما بالك إذا كان الولد بتاً وليس بذكر !! لا نجد تصويراً لمثل هذه الحال إلا في قوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا الْمَوْءِدَةُ سُئِلَتْ ﴾ بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ﴿ [التكوير ٨ ، ٩] . لقد كانوا يقتلوننا وهي في المهد مخافة التعرض مستقبلاً لشئ من العار أو الذل لو قصرنا في حماية العرض . فأى جهد بذله رسول الله ﷺ في هذه البيئة حتى قبل هؤلاء أن تقطع يد امرأة شريفة من قبيلة مخزوم في حد من حدود الله سبحانه ؟

ذلك ما يفوتنا كثيراً تأمله وتدبره ونحن نخالط نص الحديث الشريف بوضوحه وكثرة استعماله . وذلك نفسه ما نحاول أن نقف عنده قليلاً لنكتفى من نتائجه الكثيرة بنتيجتين اثنتين لهما بالمسؤولية والحرية صلة مباشرة ، ونحن في أشد الحاجة للانتفاع بهما فيما نحن بصدد من تصميم على التغيير .

أ - أن هذه الإرادة المحمدية التي أرادها الله سبحانه أن تكون النموذج الإنساني الكامل كى يتأسى بها الناس . هذه الإرادة قد حملت مسؤوليتها العظيمة حرة

مستقلة . حرة من التأثير بالتقاليد المنحرفة مهما كانت راسخة ، ومستقلة عن الأعراف الخاطئة مهما كانت مهيمنة ، ولهذا كان التغيير الجذري الذي وقفنا عنده ، حتى نتعرف إلى شئ هام من خلال هذه الوقفة ، وهى أن المسؤولية المستقلة فى شخص رجل سوى تستلزم حتما أن يكون هذا الرجل حراً من التبعية فى آرائه وسلوكه ، وإلا فلن يحدث به الأثر المطلوب والتغيير المنشود بينما هذا هو الواجب لكل مسلم .

ب - أما النتيجة الأخرى التى نستخلصها من وقفنا هذه ، فهى أن سيدنا رسول الله ﷺ حين حمل المرأة المخزومية مسئوليتها مستقلة فمعنى ذلك أنه ﷺ قد حررها من التبعية للقبيلة العريقة فتميزت شخصية المرأة تميزاً كاملاً فى خطأ أو صواب وفى ضرر أو نفع ، وقد كان لهذا السلوك الحازم من النبى ﷺ أحسن الأثر فى شخصية المرأة بعدئذ .

فقد روى الإمام البخارى رحمه الله حديثاً من طريق عروة بن الزبير جاء فيه عن هذه المرأة فى مستقبل أمرها : فحسنت توبتها بعد ذلك وتزوجت ، قالت عائشة : فكانت تأتى بعد ذلك فأرفع حاجتها إلى رسول الله ﷺ^(١) ، فهى بهذا السلوك الصحيح قد تابت وحسنت توبتها .

ثم هى أيضاً فوق ذلك على صلة وثيقة بالنبى ﷺ وآل بيته الكريم ، تحبهم ويحبونها ويقضى لها النبى ﷺ حاجاتها ، فقد أضحت من طراز حر نبيل طهرتها توبتها ، وزكاها تحملها للمسؤولية المستقلة .

ثانياً : فى الحديث الشريف شخصية كريمة عزيزة من عين آل بيت النبوة ضرب بها سيدنا رسول الله ﷺ مثالا للناس كافة .

(١) البخارى ج ٥ ص ١٢٥ نفس طبعة مكة .

تلكم هي الزهراء الحبيبة السيدة فاطمة بنت النبي ﷺ وقد جعلها الرسول الكريم عليه صلوات الله بمنزلتها منه سبيلاً تشرعياً لبناء عنصر المسؤولية الشخصية في أعماق كل مؤمن ، قاضياً كان أو متهماً ، فرداً أو أسرة أو مجتمعاً بأسره ، فابنة الحاكم مهما علا قدره ومهما بلغت طهارتها ونقاؤها تتحمل مسئولية سلوكها إذا اكتملت أركان الاتهام والإدانة .

بيد أن الملاحظة التي لاحظناها في المقارنة بين حداثة العهد بالأعراف العربية - ذات الحمية الجاهلية - وبين قبول هذه البيئة أن تقطع يد واحدة من نساها ، مثل هذه الملاحظة نفسها نجدناها هنا في الذروة ، فالمنطق الذي واجههم به سيدنا رسول الله ﷺ غريب كل الغرابة على هذه البيئة فما سمعوا عن أب يتخل عن ابنته في موقف كهذا ، بل يقطع يدها ، فكيف تمكن النبي ﷺ من جعل هذا المنطق الغريب عليهم ، منطقاً مقنعاً لهم ومؤثراً فيهم .

إن ذلك التحول يشير إلى نفس الجهد الخارق الذي استطاع به ﷺ أن يُبلِّغَ به فيهم إقناعاً وتطبيقاً هذا الشأن البعيد البالغ التباعد ، ويشير بالتالي إلى المسؤولية التي وصلت أرقى درجة في الاستقلال والتحرر في ذلك الأب الذي يصنعه النبي ﷺ في أمته بذلك التوجيه العملي ، أباً تحرر بمسئوليته من هوى عطف الأبوة على أحب بناته إليه لو لزمها شيء من حدود الله سبحانه .

ثالثاً : يقدم لنا الحديث أيضاً شخصية الحبّ ابن الحب لرسول الله ﷺ أسامة بن زيد الذي لم يستطع بحبه ودالته اختراق الجدار المحكم لهذه المسؤولية الفولاذية . بل وضعته هذه المسؤولية الصادقة في موقف غاية من الحرج ، فمهما كان حبيباً هو ، فالحق والعدل والمساواة أمام المسؤولية أحب إلى الله ورسوله ﷺ ، ثم إن ذكر فاطمة ؓ في هذا الموقف تجاوز كل مقامات الشفعاء والوسطاء إلى الحق وحده .

بهذه الموازنة الحاسمة وضعت الأمور في نصابها على كافة المستويات من فوق

المنبر ، والنبي ﷺ يقول : « إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وإيم الله لو أن فاطمة ابنة محمد سرقت لقطعت يدها » .

ومن قبل هذه الغضبة في الله على مستوى الجماعة ، كان سؤاله الخاص فيما بينه وبين أسامة : « أتشفع في حد من حدود الله ؟ » .

وكما كان الأثر عند المخزومية إيجابياً بعد إقامة الحد . كان الحال هنا كذلك مع أسامة ، إذ تنبه أسامة على الفور عندما أدرك أنه ما كان ينبغي له التورط في هذه الوساطة التي تهدم ركنا من أركان المسؤولية والعدالة ، فقد جاء في رواية الإمام البخاري من طريق عروة بن الزبير السالفة الذكر ما نصه : ففزع قومها إلى أسامة بن زيد يستشفعونه ، قال عروة : فلما كلمه أسامة فيها تلون وجه رسول الله ﷺ فقال : « أتكلمني في حد من حدود الله ؟ » .

قال أسامة : أستغفر لي يا رسول الله ! فلما كان العشي قام رسول الله ﷺ خطيباً فأتى على الله بما هو أهله ثم قال : « أما بعد فإننا أهلك الناس قبلكم ... إلخ » ^(١) .

ولعلنا ندرك من سياق الأحداث السريعة في هذا اليوم أسلوب النبي ﷺ وهو يرسى ويعمق ويركز قواعد النظام الإسلامي في خطوات متلاحقة كلها في اتجاه غريب جدا على مجتمع القبيلة والعشيرة في الجزيرة العربية ، ثم لا يلبث رسول الله ﷺ أن يحصل على ما يريد في نهاية هذا اليوم المبارك :

✽ سيادة النظام على عرف القبيلة بما فيه من بدادة وعصية وحمة .

✽ المساواة أمام القانون للقوى والضعيف وللشريف والوضيع .

✽ الحيلولة دون الوساطات والاستثناءات في مجتمع تعلو فيه كلمة الحق والعدل .

* صيانة الحدود الشرعية وإعطاؤها حرمتها وقداستها لتحقيق دواعي الأمن والطمأنينة داخل المجتمعات الإسلامية التي تلتزم بها أمر الله به .

* ومن الضروري أن نذكر الأثر العظيم لهذه الحادثة في أعماق كل شخص وفرد من المسلمين والمسلمات في المجتمع المسلم كله .

ونقصد من الأثر - غير ما ذكرنا من النتائج العظيمة سلفاً - إحساس كل فرد مسلم في أعماقه بمعنى المسؤولية الحقيقية عن كسبه وسلوكه ، وأن هذه المسؤولية كاملة ومستقلة ، لا يغنى فيها أحد عن أحد ولا والد عن ولد ، ولا مال ولا جاه ولا حسب . على أنه من الضروري أن نذكر أن لهذا التطبيق جذوره الضاربة في تحمل المسؤولية منذ أول لحظة في تبليغ الدعوة الإسلامية إلى قريش ، فالمسألة إذن تتعلق بمبدأ أساس صاحب عقيدة التوحيد ذاتها في وقت مبكر ، وإليك بيان ذلك بإيجاز :

الاستقلال في تحمل التبعية مع بداية الدعوة :

إن موقف السنة في هذا الجانب موقف حاسم وقاطع ، وتتسم النصوص الدينية في هذا المجال بالصرامة البالغة منذ صدع الرسول ﷺ بالدعوة إلى ربه حتى قامت دولة الإسلام وعلت كلمة الحق .

وروى الإمام البخارى بسنده عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ جعل النبي ﷺ يدعوهم قبائل قبائل .

وروى الإمام البخارى بسند آخر عن ابن عباس قال : لما نزلت : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ جعل النبي ﷺ ينادى : يا بنى فهر ، يا بنى عدى ، ببطون قريش . وروى البخارى أيضاً عن أبى هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال : « يا بنى عبد مناف اشترؤا أنفسكم من الله ، يا بنى عبد المطلب اشترؤا أنفسكم من الله ، يا أم الزبير بن

العوام عمة رسول الله ، يافاطمة بنت محمد اشتريا أنفسكما من الله ، لا أملك لكما من الله شيئاً ، سلاني من مالي ما شئتما ^(١) .

واضح أن هذه الأحاديث الشريفة كانت أسبق بكثير من حديث المخزومية ، فبينما كان أمر المخزومية بالمدينة حيث إقامة الدولة الإسلامية الأولى ، كانت هذه الأحاديث في بدايات الدعوى بمكة المكرمة . وإنما نذكر هذا الفارق الزمني لتوضح ما يأتي :

أولاً : أن التمثيل بالسيدة فاطمة الزهراء في قصة المخزومية لم يكن شيئاً تكتيكياً فرضته ظروف قضية المخزومية كما يعبر الساسة في هذا العصر ، كى يستعين رسول الله ﷺ على إقناع كل من أسامة وعشيرتها بالخضوع لإنفاذ حد الله سبحانه .

كلا ، لم يكن الأمر كذلك وإن كان هذا الأمر في حد ذاته قصداً نبيلاً ، أعمق من ذلك بكثير ، فالتمثيل حقيقى في نتائجه ، لو حدثت مقدماته وحاشا لله أن تحدث .

ثانياً : لم تكن السيدة فاطمة الزهراء وحدها في هذه المسألة الجوهرية التى تتعلق بالمسئولية الشخصية في الإسلام ، فهذا هو رسول الله ﷺ ينادى بطون قريش وأعيامه وعماته وابنته في هذه المرحلة المتقدمة من تاريخ الدعوى ليعرفوا من أول الطريق حقيقة هذه المسئولية : « اشترؤا أنفسكم من الله ، واشترى أنفسكما من الله ، لا أملك لكما من الله شيئاً » .

ثالثاً : إذا كنا ذكرنا في حديث المخزومية مواجهة النبى ﷺ للمجتمع بقواعد مغايرة لأعرافهم مغايرة كلية مع الإشارة عندئذ إلى جهد النبى ﷺ الشاق والخارق في تغيير هذه الأعراف حتى أضحى من الممكن أن يقبلوا منطقته وحكمه ، فالأمر هنا جد مختلف ، إذ لا زلنا بمكة والأعراف هى الأعراف لم تتغير ، والتقاليد

الراسخة على الحمية والأنفة لا زالت قوية لم تمسها يد التغيير ، ومع ذلك لا يتردد الرسول الكريم ﷺ في أن يعلن لأهله وأقاربه جميعاً عدم تبعيتهم في تحمل المسؤولية ، بل ويعلن أنه لا يغنى عنهم من الله شيئاً ، ولا يملك لهم شيئاً ، ثم يخص فاطمة وعمته أم الزبير على غير ما جرت به عادة العرب من حماية النساء والظهور أمامهن بمظهر البطولة .

رابعاً : أن تخصيص النبي ﷺ ابنته فاطمة بمثل هذه النداءات بمكة دون غيرها من بناته ؛ لأنها كانت أصغر البنات سناً ، والصغرى هي التي تحتاج للحماية والرعاية أكثر من سواها . كما أنها كانت - رضى الله عنها - في كفالة أبيها حيث لم تتزوج بعد ، وتظهر معاني التبعية هنا للأب بصورة أجلى . فإذا كان الرسول ﷺ لا يملك لهذه شيئا فغيرها من باب أولى ، وإذن فذكرها على وجه الخصوص أوقع في النفس أثراً وأوضح في الدلالة بياناً .

خامساً : إذا كان الرسول ﷺ حرص على هذه البيانات يسوقها لعشيرته في المراحل الأولى والمبكرة من مراحل الدعوة تنفيذاً لأمر الله سبحانه : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ .

فمعنى ذلك أن المسؤولية الشخصية شئ هام جداً وتأسيسى في صلب الدعوة الإسلامية وكيانها ، وإلا كان من الممكن تأجيل بلاغه بعض الوقت . والحق أن التغيير الجوهرى في المجتمع لا يتم ولا يتحقق إلا على أيدي رجال تميزت ونمت قيم المسؤولية في أشخاصهم ونفوسهم وسلوكهم .

ونخلص من ذكر هذه الأحاديث النبوية الشريفة الأربعة بأنها جميعها تؤكد وتؤيد أن المسؤولية المستقلة أو الشخصية ضرورة من ضرورات المفاهيم الأساسية التي لا يكون التكليف إلا بوجودها ، أى يمكن اعتباره ركناً من أركان المنهاج الإسلامى لحماية المسؤولية من حيث الاختيار الإنسانى ، ونعمة الحرية على أساس

أن الحرية في الاختيار من لوازم التكليف الشرعى كما سبق بيانه .

استقلال الشخصية على مستوى الأمة :

إذا كان الأفراد في مجتمع من المجتمعات يتمتعون بشخصيات سوية مستقلة ، فلا شك أن ذلك سيؤثر في المجتمع نفس الأثر الطيب ، ومن هنا فقد طلب الإسلام من كل أسرة أن تمنح أفرادها قدراً كبيراً من العناية والتربية على مبادئه الخالدة كي تكون اللبنة التي يتكون منها بناء الأمة قوية صحيحة ، ومن أجل ذلك كان اهتمام الإسلام البالغ بتنمية الشخصية المسلمة وجعلها متميزة مستقلة . وأى خلل في الفرد سيعود على الأسرة ، وبالتالي يعود على المجتمع المسلم والأمة الإسلامية ؛ ولذا كان لابد من الإشارة إلى خطورة ضعف شخصية الأمة أو ضياعها في هذه الفقرة الخاصة .

فقد حذر رسول الله ﷺ من خطورة فقدان استقلال الشخصية على مستوى الأمة ، مبيناً أن هذه الخطورة قد تصل إلى درجة ذوبان الأمة وتلاشيها فيما عداها من الأمم .

روى الإمام البخارى عن أبى سعيد الخدرى عن النبى ﷺ قال : « لتبعن سنن من كان قبلكم شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع ، حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » ، قلنا : يا رسول الله : اليهود والنصارى ؟ قال : « فمن ؟ » ^(١) .

ويروى الإمام البخارى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال : « لا تقوم الساعة حتى تأخذ أمتى بأخذ القرون قبلها ، شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع » ، فقيل : يا رسول الله ، كفارس والروم ؟ فقال : « ومن الناس إلا أولئك ؟ » ^(٢) .

ويتضح أشد التحذير في قوله ﷺ : « شبراً بشبرٍ وذراعاً بذراع » ، في النصين وفي

(١) البخارى ج ٩ ص ١٣٣ .

(٢) المصدر نفسه .

قوله ﷺ: « حتى لو دخلوا جحر ضب تبعتموهم » ، في النص الأول . حيث تصور هذه الكلمات النبوية أشد حالات الضعف وتلاشى الشخصية المميزة للأمة وتبعيتها الكاملة لأعدائها ، مع الحرص على تقليدهم في كل خطوة شبراً بشبر حتى لو دخلوا جحر ضب لاقتفوا أثرهم في صغار وذل ومهانة .

وفي هذه الأحاديث إعجاز بيّن وقع كما أخبر الرسول الكريم ﷺ ، ولا يخفى أن التبعية والتقليد على هذه الصورة المنافية للعقيدة والدين من أسوأ القيود التي تتعارض مع الحرية ، حيث تملى على الناس سلوكاً يتنافى مع دينهم .

وهم في الواقع لا يصلون إلى هذا المستوى العام البالغ في الانحدار إلا إذا فقدوا حرية الرأي والاعتقاد والقدرة على الاختيار ، وانهارت مشيئتهم وإرادتهم وعندئذ يصبحون أسارى لسلوك غريب وافد مع أعدائهم . وليس أدل على ذلك من حال الأمة الإسلامية في الوقت الحاضر .

ومن هنا تبدو عظمة المنهاج الإسلامى حين يسلك في حماية حرية الرأي والاعتقاد والسلوك في الأمة طريقاً فطرياً يوجب تميز شخصية الأمة واستقلالها عن التأثير بهذه العوامل الخارجية الضارة .

obeikandi.com

الفصل الثالث

الدعاء والاستعانة بالله

ليس كالدعاء عبادة في الإسلام يحتاج المسلمون لمعرفة الكثير عنها وعن بعض أسرارها وحكمتها ، وذلك بسبب عدم متابعتهم للنصوص القرآنية والنبوية في موضوع الدعاء واستظهار ما فيها من أبعاد .

ولا يعدو تصور المسلمين عن هذه العبادة - خصوصاً عامة الناس وكثرتهم الكاثرة - أن يكون الدعاء عندهم مجرد كلمات تعبر عن الأمنى الدنيوية أو الأخروية يرفعها العباد إلى مولاهم وخالفهم ثم ينتظرون تحقيقها .

ومع أن هذا التصور جزء مهم من هذه العبادة ، إلا أن قصر التفكير في حدوده فقط يعتبر افتياتاً على عبادة الدعاء ينتقص من جوهرها ويضعف أثرها ، ويلغى الكثير من وظيفتها وحكمتها ، فضلاً عن الخلل أو الاضطراب الذى يعترى الاعتقاد ، فالدعاء مخ العبادة ، وإذا أصيب المخ بهذه العوارض اضطربت سائر العبادات ، وأدى ذلك بالتالى لاضطراب صلة العبد بربه من أساسها .

والواقع أن عبادة الدعاء - فوق أنها تعبير عن الأمنى يرفعه المخلوقون إلى خالقهم - هى عملية متكاملة مركبة لها جوانب كثيرة ، ومن أهمها ، جانب نفسى خاص بالإرادة ، وجانب مادى خاص بالسلوك والعمل .

الجانب النفسى :

جانب يبلغ درجة الانفعال الصادق فى أربعة اتجاهات :

- ١- إحساس العبد الذى يدعو ربه بالحاجة والافتقار إلى الله سبحانه ليصل إحساسه إلى درجة الاضطراب المطلق لخالقه وموجده يقول تعالى : ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ

الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَا وَيَكْنِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أُولَئِكَ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ [النمل: ٦٢].

وقال رحمه الله فيما رواه السيدة عائشة رضي الله عنها: « سلوا الله كل شيء حتى الشعس فإن الله إن لم يسره لم ييسره »^(١).

٢- الثقة بالإجابة في جانب الله سبحانه ، ويبدو ذلك في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾ [البقرة: ١٨٦].

وقال رحمه الله فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه: « ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا كل ليلة حين يمضي ثلث الليل الأول فيقول : أنا الملك ، من ذا يدعوني فأستجب له ، من ذا الذي يسألني فأعطيه ، من ذا الذي يستغفرني فأغفر له ، فلا يزال كذلك حتى يضيء الفجر »^(٢).

٣- إحسان الظن بالله تعالى وتفويض الأمر الذي تعلق به النفس وناجحت به مولاهما المحيب الكريم ، فقد يكون ما تمتته النفس ضاراً بصاحبها لو تحقق ، وأيضاً حتى يتم التوازن أمام احتمالات الحياة وتطلعاتها خاصة وأن السنة أخبرتنا بإجابة الدعاء الصادق ، أو إجابة ما هو خير منه للداعي ، أو ادخاره له عند ربه ، أو يصرف عنه من السوء مثل دعائه .

قال تعالى : ﴿ وَيَدْعُ الْإِنْسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ [الإسراء: ١١].

ويقول رحمه الله فيما يرويه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: « أنا عند ظن عبدي بي »^(٣).

(١) أبو يعلى في مسنده ، ذكره السيوطي في الجامع الصغير وسكت عنه ونقل المناوي في فيض القدير أن

الهيثمى قال : رجاله رجال الصحيح غير ابن عبد الله بن المنادى هو ثقة ص ١١٠ ج ٤ .

(٢) حديث صحيح : أخرجه الأئمة السنة واللفظ للترمذي ص ٥٢٤ ج ٢ تحفة الأحوذى .

(٣) البخاري ، كتاب التوحيد .

ويروى الشيخان أن رسول الله ﷺ قال : « يستجاب لأحدكم ما لم يعجل ، يقول : دعوت فلم يستجب لي » ، وهذا لفظ البخاري رحمه الله .

٤ - خلو الدعاء من تمنى الشر للنفس أو للغير .

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم ما لم يستعجل » ، قيل : يا رسول الله ، وما الاستعجال ؟ قال : « يقول قد دعوت وقد دعوت فلم يستجب لي فيستحسر عند ويدع الدعاء » ^(١) .

وروى الإمام أحمد عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال : « ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يعجل له دعوته ، وإما يدخرها له في الآخرة ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » ، قالوا : إذا نكث ، قال : « الله أكثر » ^(٢) .

فهذه اتجاهات نفسية أربعة رئيسة . كل اتجاه منها على حدة ، عملية نفسية نبيلة تدخل تحتها اتجاهات متعددة ، إذا تحققت كلها فستكون إرادة الإنسان الداعية ومشيته قد تهيأت تماماً كي ترفع صاحبها نحو سلوك رفيع ومرضى من الله ومن عباده . وهذا السلوك الرفيع المرضي من الله ومن الناس سيكون مهيباً للانبعاث من أعماق فاعله عن اقتناع ورضا وإيمان وتلك ذروة من ذرى حرية الإرادة في الإنسان ونهايتها وانطلاقها ، ومن ذرى حرية السلوك كذلك ، فضلاً عما يتوقع للعمل من إجابة وإتقان .

الجانب العملي :

الواقع أن الجانب العملي لشعيرة الدعاء والمناجاة يعتبر صدى أو رد فعل

(١) مسلم .

(٢) أحمد .

للجانِب النفسى بشعبة الرئيسة الأربع وما تحتويه من اتجاهات نفسية إيجابية عديدة، فإحساس الداعى وشعوره بالحاجة والأضطرار إلى خالقه، والثقة فى إجابته، وإحسان الظن به، وتفويض الأمر إليه، وتنقية الرغبات المرفوعة من الأذى والمضرة، وما يتبع ذلك من اتجاهات نفسية فرعية كل ذلك له صداه المباشر على الناحية العملية.

فمثلاً الإحساس بالأضطرار إلى الله سبحانه، يجعلنى أرجوه وأخافه نفسياً، وأحرص على أن أكون مطيعاً له عملياً.

ومع الأضطرار يكون الإلحاح، ومع التكرار والإلحاح يكون الارتباط بالأهداف عقلاً وسلوكاً، وثقتى فى الإجابة تجعلنى نفسياً أحب الله سبحانه، وتربطنى عملياً بما أطلبه من الله، فما دمت واثقاً إجابة طلبى وتحقيقه فلا بد أن أنظم سلوكى على أساس هذا الواقع.

فإذا دعوت بالمغفرة مع يقينى بتحققها خشيت أن أحدث شيئاً جديداً يبدد أثر النقاء والبراءة من الآثام والذنوب التى محيت، وإذا دعوت بالنجاح هيأت نفسى وهيأت سلوكى لمرحلة أكبر تقدماً فى العلم بإدراك النجاح.

وهكذا يغرس الدعاء فى نفسى أمرين يتصلان بالغرض المراد تحقيقه بالدعاء اتصالاً مباشراً ومؤثراً:

الأول: حب العمل.

الثانى: إجادته وإتقانه. هذا بالطبع عدا الأحاسيس الأساسية التى أكسبتنى مزيداً من حب الله سبحانه كنتيجة لهذه الثقة.

أما التفويض لله مع حسن الظن به سبحانه فإنه يترك انطباعه العظيم فى الاندفاع والرغبة والعمل من حيث التوازن بين ما يتحقق من رغبات الحياة وما لا يتحقق.

ولاشك أن مواجهة المواقف نفسياً وعملياً بريادة الجأش وهدوء النفس ومتانة الأعصاب يؤدي إلى نجاح الأعمال ، خصوصاً ما كان منها ذا طابع غير عادي كالحرروب والمفاجآت السارّة أو الضارة على حد سواء ، وفي مقدمة هذه الأعمال ، التصدي لتغيير النفس والمجتمع إلى الوضع الأفضل الذي يرضى عنه الله ويعود بالخير على عباده .

وأما براءة الدعاء من الأذى والمضرة والقطيعة ونحوها فهو فضلاً عن ربط العبد بربه ، فإنه يربط العباد بعضهم ببعض رباطاً حسناً .

بل ويتفرع عن هذا الاتجاه ، اتجاه أرقى وهو إشرارك الآخرين في الرغبات الطيبة التي يربدها الداعي لنفسه ، فكلما عمم الداعي دعاءه للآخرين كان ذلك أدعى إلى القبول ، والبشريات النبوية في هذا كثيرة .

فدعاء الأخ لأخيه بظهور الغيب مستجاب ، والملائكة تدعو لمن يدعو لغيره بقولهم : ولك مثل ذلك .

فإذا تعود المسلم بهذا الدعاء على أن يتمنى الخير لغيره كما يتمناه لنفسه واستدام هذا التدريب حصل على أعظم الفوائد التي تقربه من الله ومن الناس ؛ لأنه سيكون من طبيعته النفسية حينئذ أن يسعد بما يسعد الناس به فضلاً عن براءته من أمراض اجتماعية خطيرة كالخقد والحسد والبغض وسوء الطوية ، وستفرض هذه المشاعر الجيدة نفسها على الواقع الخارجى للمرء حيث يجد نفسه مدفوعاً لخدمة الناس والسعى في مصالحهم ، فضلاً عن العفو والصفح والتسامح معهم ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » ^(١) .

(١) متفق عليه .

كما يشترط في هذا الجانب العمل لاستجابة الدعاء أن يكون المطعم والمشرب ، والملبس حلالاً ، وهذا يقتضى الأمانة والاستقامة والعفة عما في أيدي الناس مما يستدعى الحب والإخاء والعلاقة الطيبة بهم ، ولا تخفى الصلة الوثيقة بين ذلك كله ، وبين العزيمة القوية والإرادة الممتازة .

روى مسلم عن أبى هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيباً وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ [المؤمنون: ٥١] ، وقال تعالى : ﴿ يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾ [البقرة: ١٧٢] ، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك » ^(١) .

من أجل ذلك كان الدعاء حافزاً من أعظم الحوافز في الإسلام على أن يتحمل المسلم مسؤوليته الكاملة عن طريقين يرجعان في النهاية إلى طريق واحد :
الطريق الأول : طلب العون الإلهي في كل موقف من مواقف المشيئة الانسانية وسلوكها .

الطريق الثاني : تنمية واستثمار المواهب الإلهية في الإنسان بأعلى درجة من كفاءتها ، علماً بأن هذا الطريق الأخير يشكل في الحقيقة - بكل ما فيه من إرادة حرة ، وسلوك مختار - مجرد مخلوق من مخلوقات الله سبحانه ، فهو يؤول حتماً إلى الطريق الأول .

ومن هنا يكون طلب العون بالدعاء الصادق أسرع وانجح وسيلة لإجادة عمل هذه المواهب واستثمارها على خير وجه من هذين الطريقين معا .

ولذلك نرى اتجاه السنة المطهرة غاية في الوضوح في الجمع بين هذين الطريقتين بالدعاء ، حيث تكون ألفاظ المناجاة والأدعية مقترنة أو مصاحبة لعمل إنسانى جاد متسق الخطوات في طريق الدعاء نفسه .

من ذلك أن رسول الله ﷺ كان يتهجد بالليل مناجيا مولاه بأدعية كثيرة متعددة ، وكان يطلب من أهله وأصحابه ألا يجرموا أنفسهم من هذا الخير .

« من يوقظ صواحب الحجرات ؟ يارب كاسية في الدنيا عارية في الآخرة »^(١) .

وغلب النوم مرة سيدنا على بن أبى طالب فحاول أن يعتذر بالمشيئة فلم يقبل ذلك سيدنا رسول الله ﷺ .

فقد أخبر على بن حسين ، أن حسين بن على أخبره أن ابن أبى طالب أخبره : أن رسول الله ﷺ طرقه وفاطمة بنت النبى ﷺ ليلة ، فقال ألا تصليان ؟ « فقلت يارسول الله : أنفسنا بيد الله ، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا . فانصرف حين قلنا ذلك ، ولم يرجع شيئا ، ثم سمعته وهو مولى بضرب فخذه وهو يقول : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْئًا جَدَلًا ﴾ » متفق عليه .

وفي هذا الحديث عدة فوائد تهمنا في موضوعنا بشكل مباشر :

أولاً : أن إسقاط الجهد البشرى مع الاحتجاج لذلك بمشيئة الله جدل لا يصلح مسوغاً للتباطؤ .

ثانياً : أن العبادات مرتبطة بالعزيمة القوية والإرادة الماضية بحيث ينبغى أن تتغلب على الاحتياجات الجسدية التى يمكن الاستغناء عنها كالنوم عن التهجد في هذه الواقعة .

ثالثاً : أن المناجاة والدعاء لابد أن تصحبها أعمال إنسانية من جنسها ، فالمناجاة

(١) البخارى عن أم سلمة .

حب ، وصدق الحب يقتضي لذة السهر ومجافاة النوم والرقاد .

رابعاً : أن المؤمن يتعهد أهله ويربى أبناءه على هذه الخصال .

خامساً : أن تكون التربية بالإقناع وليست بالإكراه .

فقد بقيت الآية التي قرأها الرسول ﷺ في أعماق النفوس تؤتي أثرها اقناعاً وتوجيهاً لكل مؤمن ومؤمنة حتى آخر الزمان .

وفي هذا لفظة قوية للأبناء والأمهات ومن لهم حق التوجيه أن يستعملوا مثل هذا الأسلوب الحكيم القائم على الإقناع ، وعدم الإلحاح أو الضغط الذي قد يثير العناد والإصرار أكثر مما يثير الرغبة في الهدى والافتداء الحسن .

وفي حديث آخر بين سيدنا رسول الله ﷺ أن الذكر والدعاء القولي مرتبطان أيما ارتباط بالجهد الإنساني إرادة وسلوكاً ، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « يعقد الشيطان على قافية رأس أحدكم إذا هو نام ثلاث عقد ، يضرب كل عقدة : عليك ليل طويل فارقد ، فإن استيقظ فذكر الله انحلت عقدة ، فإن توضأ انحلت عقدة ، فإن صلى انحلت عقدة ، فأصبح نشيطاً طيب النفس ، وإلا أصبح خبيث النفس كسلان » (١) .

وقد أورد هذا الحديث الشريف الدكتور محمد عبد الله دراز حين عالج فاعلية الجهد والقدرة على الاختيار الحسن بين أمرين حيث نقاوم بإرادتنا وسلوكنا بعض الصعوبات التي تعترض اختيارنا للأفضل فقال :

ولكى تكون لدينا صورة تقريبية للصعوبات التي تلقاها إرادتنا في استعداداتنا الموروثة أو المكتسبة - يكفي أن نتصور إنساناً غارقاً في نوم عميق ، وهو يسمع رنين ساعة منبهة ، إننا نخلط بين نظامين مختلفين تماماً حين نقول : إن قانون الطبيعة

(١) صحيح البخاري ، باب التهجد .

الذى يضغط على البدن ، ويشل حركته ، يعوق بنفس القدر إرادة الاستيقاظ .

فالحقيقة أنه يكفى أن تمتد اليقظة لبضع لحظات كافية لتحريك الشعور ، وتضمن عدم سعادة النوم في الحال ، فإن هذه الحالة الطبيعية تترك أمام الإرادة ثلاثة مواقف ممكنة للاختيار على سواء : فلقد يقول المرء لنفسه ، وجسمه لا يزال في حالة خمود : « يجب أن أواصل راحتي » ، أو « أرجو أن أستيقظ ، ولكنى لا أستطيع أن أعزم » أو « يجب أن أنهض للعمل » .

ومن الواضح أن الموقف الأول المعادى للواجب في إصرار ، لا يمكن أن يكون مما تفرضه الطبيعة ، إذ إن المرء يستطيع - دون أى تغيير في الوضع المادى - أن يتخذ الموقف الأوسط الذى ينطوى على إرادة ضعيفة ، وهذه الإرادة هى المعادل العملى للهروب . وعليه ، فمتى ما بلغ المرء مرحلة اختيار هذا الحل الوسط أصبح من اليسير أن يتحقق من صحة هذا الحكم الذى نصدره مسبقاً عن عجز إرادتنا . وبحسبنا أن نشرع في محاولة ، مجرد انتفاضة مصطنعة ، حتى نسقط كل وهم عن حقيقة حريتنا . نعم إنه مع قليل من التوتر ، ومع شئ من الحساس ، ينهض أكثر الناس نعاساً ، ويمضى في عزمه .

وهذه الفكرة التى عاجلناها هنا أشار إليها حديث معروف ، يتعلق على وجه التحديد بمقاومة هذا الميل الضعيف إلى الاستيقاظ ، وتتألف الطريقة المأمور بها من مراحل متعددة تهدف إلى تحطيم هذه القيود المادية المفروضة على الإرادة - بعضها في اثر بعض : انطق كلمة تذكرك بالواجب ، قم ، اغسل وجهك وأعضاءك بالماء ... إلخ ، فإذا كان الجسد قد انتعش على هذا النحو بقدر ضئيل من الجهد المؤلم في البداية ، فإنه سوف يرد إلى النفس بعد ذلك راحتها ومسرتها^(١) .

(١) انظر البخارى ، التهجد ، باب ١٢ أ . هـ . (ص ١٩٩ - ٢٠٠) الأخلاق في القرآن .

وقد أوردنا نص الحديث الشريف المقصود قبل هذا التعليق .

أدعية مباشرة لصالح المشيئة الإنسانية :

على أن هناك مجموعة من الأدعية المباشرة لاستثمار موهبة المشيئة وتقوية الإرادة وتنمية العزيمة . منها ما رواه الشيخان عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : كان النبي ﷺ يقول : « اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم ، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات ، وأعوذ بك من عذاب القبر » ^(١) .

ونحن إذا نظرنا في هذا الحديث على ضوء السنة العملية في الحديث السابق أدركنا أن التعوذ من العجز يجعل المسلم في حالة نفسية تنفر من العجز ، وبالتالي تجعله في رغبة وتطلع إلى أن يكون ذا قوة وقدرة ، فإذا تهأت نفسه بهذا الدعاء كانت الخطوة العملية بعد ذلك ميسرة ، حيث يلتزم السبيل العملي لإبراز تطلعاته إلى عالم الواقع ، فتتسق وتنسجم مواهبه المعنوية والعملية في تعاضد وتلاحم منطلقة إلى ما يريد صاحبها أن يحققه من أغراض .

وهنا تبدو لنا السنة المطهرة في تكاملها وتساندها في عبادة الدعاء وآثارها العملية حين يأتي الأنصارى إلى النبي ﷺ يشكو الحاجة والفاقة ، فيأخذ الرسول ﷺ بيده أخذاً إلى مستوى الدعاء الذي يستعيد فيه المؤمنون بالله سبحانه من العجز والكسل ، فيسأله : « أما في بيتك شيء » ويجيب الأنصارى : بلى ، جلس نلبس بعضه ونبسط بعضه ، وقعب نشرب منه الماء .

ويعقد الرسول ﷺ بين أصحابه مزاداً علنياً يبيع فيه هذه الممتلكات الزهيدة التي لا تتجاوز ثمنها درهمين اثنين ، ويأمر الأنصارى أن يشتري بواحد من الدرهمين طعاماً لأهله ، وأن يشتري بالآخر قدوماً ، ثم يرخص للرجل بل يأمره أن يتفرغ

(١) البخارى . باب ما يتعوذ من الجبن .

تماماً للاحتطاب والبيع خمسة عشر يوماً لا يرى فيها مجلس رسول الله ﷺ ، ويعود الأنصارى بعد أسبوعين وقد ربح عشرة دراهم . فيقول له النبي عليه صلوات الله : « هذا خير لك من أن تحب المسألة نكتة في وجهك يوم القيامة »^(١) .

وإذا كان هذا التحليل النفسى والمادى يتفق مع واقع عالمنا الحديث كأثر ملموس من عون الله لعباده بالدعاء ، فما بالناس بالآثار العظيمة التى لا تتعلق بها مشاهداتنا من المساندة والمعونة الإلهية التى لاتقع تحت مدركاتنا ولا نستطيع - بالتالى - إخضاعها للتحليل ؟

ومن هذه الأدعية المباشرة فى المشيئة ، الاستعاذة بالله من الشيطان عند الغضب حتى لا تضطرب المشيئة وقراراتها بسبب الانفعال الحاد ، ويترتب على ذلك من المضرة للنفس أو للغير ما يمكن تجنبه حين تبقى المشيئة فى حالتها الطبيعية الهادئة .

روى البخارى عن سليمان بن صرد قال : كنت جالساً مع النبى ﷺ ورجلان يستبان فأحدهما احمر وجهه ، وانتفخت أوداجه ، فقال النبى ﷺ : « إني لأعلم كلمة لو قالها ذهب عنه ما يجد ، لو قال : أعوذ بالله من الشيطان ، ذهب عنه ما يجد » ، فقالوا : إن النبى ﷺ قال : تعوذ بالله من الشيطان ، فقال : وهل بى جنون ؟^(٢) .

ويتكامل مع هذه الاستعاذة حديث النبى ﷺ فى الجانب العملى حين جاءه رجل تهيأت نفسه وعزيمته كى يلتزم عملياً بمنهاج محدد يأمر به سيدنا رسول الله ﷺ ، وقد بلغ حرص الرجل على ما يؤمر به أنه طلب التركيز والإيجاز ، حتى يستطيع الاستيعاب والإنجاز ، فكان له ما أراد .

روى الترمذى عن أبى هريرة قال : جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : علمنى

(١) رواه أبو داود عن أنس بن مالك .

(٢) متفق عليه .

شيئاً ولا تكثر على لعل أعيه . قال : « لا تغضب » . فردد ذلك مراراً ، كل ذلك يقول « لا تغضب »^(١) .

وهكذا نلاحظ تكامل السنة المطهرة في ربط الدعاء بالحياة العملية ، فالنبي ﷺ الذي يعلمنا الاستعاذة من الغضب بالدعاء ، يعلمنا في نفس الوقت عملياً أن نكون في مستوى ما ندعو الله به فنكف أنفسنا عن الغضب بإصرار وصبر .

ومنه تعليم المسلمين أن يتعوزوا من الشر الذي يرونه في نومهم ، حتى لا تسيطر على المسلم حالة من الخوف أو التشاؤم مما يؤثر على شخصيته مشيئة وسلوكاً ، خاصة وأن بعض الناس يعطون هذه الأمور من الأهمية قدرًا قد يؤثر في مسيرة حياتهم .

روى الإمام البخاري عن عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه قال : قال النبي ﷺ : « الرؤيا الصالحة من الله ، والحلم من الشيطان ، فإذا حلم أحدكم حلمًا يخافه ، فليصق عن يساره ، وليتعوذ بالله من شرها فإنها لا تضره »^(٢) .

ومنه تبصير المسلم ببعض العوارض الفكرية الطفيلية التي قد تهز علاقة مشيئته بمشيئة الله سبحانه إذا تركها تسترسل .

روى البخاري عن أبي هريرة ؓ قال : قال رسول الله ﷺ : « يأتي الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ، فإذا بلغه ، فليستعذ بالله ولينته »^(٣) .

ومنه توقى أثر الشيوخة على الجهد والفكر والإرادة بالاستعاذة بالله .

(١) قال الترمذي : حديث حسن صحيح غريب ، رواه الإمامان أحمد والبخاري ص ١٦٤ - ج ٦ ، تحفة الأحوذى .

(٢) البخاري : باب صفة إبليس .

(٣) متفق عليه .

روى البخارى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان يدعو : « أعوذ بك من البخل والكسل ، وأرذل العمر ، وعذاب القبر ، وفتنة الدجال ، وفتنة المحيا والممات » ^(١) .

ومنه التحذير من اليأس الذى يؤدي لكره الحياة ، والتخلي عن المسؤولية ، وانهايار العزيمة وضعف الإرادة .

روى أبو داود عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يدعو أحدكم بالموت لضر نزل به ، ولكن ليقل : اللهم أحيى ما كانت الحياة خيراً لى وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » ^(٢) .

وأخرجه الترمذى بلفظ : « لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به ، فإن كان لا بد متمنياً فليقل : اللهم ... » الحديث ^(٣) .

فهذه أحوال باشرت الأحاديث النبوية الشريفة العناية فيها بمشيئة المسلم وإرادته وعقله وشخصيته عن طريق الدعاء ، والأدعية والأحاديث الماثلة كثيراً جداً ولكننا اكتفينا بهذه المجموعة باعتبارها نماذج تغطى عدة جوانب هامة من جوانب الحياة وأحوالها .

فالأحاديث التى ذكرناها عالجت بالدعاء الأحوال الآتية :

١- العجز ، والكسل فى كل ما تنجه إليه مشيئة الإنسان من عمل نافع ليوافقه المسلم بالهمة والعزيمة والنشاط ، كأساس عام تحتاجه كل نشاطات الحياة التى يسأل عنها المسلم .

(١) البخارى .

(٢) وأخرجه أيضاً الإمام مسلم والنسائى والترمذى .

(٣) المنهل المورود ج ٧ ص ٢٤١ - ٢٤٢ .

٢- الجبن ، والبخل فهما يسيطران أحياناً على المرء فيتقاعس عن أداء الواجب المفروض .

٣- حالة الشيخوخة وما يتعرض له المرء فيها من ضعف أو مرض أو غيره .

٤- أحوال الفتن وتقلباتها في الدنيا مع الدعاء بالحفظ منها ومن فتنة القبر وعذابه .

٥- الدعاء بالحفظ والإعانة من الدجال ، وهى نظرة تربط المسلم بالتطلع إلى المستقبل بحيث يكون قراره معداً ، ومشيتة ماضية حتى لا يؤخذ على غرة أو غفلة .

٦- حالة الغضب وما يؤدى إليه من فقدان السيطرة على القصد والقول والعمل .

٧- حالة الاسترسال الفكرى غير المرضى أو غير المنتج ، وما قد يؤدى إليه من بلبلة في العقل والقلب ، ووجوب التوقف عنه ، والاستعاذة بالله منه .

٨- حالة القنوط واليأس التى قد تصل إلى درجة تمنى الموت ومعالجتها بدعاء صحيح ليس فيه قنوط ولا يأس .

اللهم فابعث في نفوسنا وقلوبنا الرجاء والأمل ، وفى سلوكنا وجهدنا صالح التطبيق والعمل ، وانفعنا وأمتنا بدين الإسلام ، وامنح نبينا محمداً خير صلاة وأزكى سلام .

والحمد لك ياربنا وخالقنا وهادينا بنعمتك وحدك تتم الصالحات ، لا نحصى ثناء عليك ، أنت كما أثنيت على نفسك ، ولا حول ولا قوة إلا بك .

بعض المراجع التي أفدنا منها

- ١- القرآن الكريم . وعلومه .
- ٢- الحديث الشريف . وعلومه .
- ٣- أحكام القرآن . للجصاص .
- ٤- أحكام القرآن . لابن العربي .
- ٥- الأحكام . للأمدى .
- ٦- إعلام الموقعين . لابن القيم .
- ٧- السياسة الشرعية . لابن تيمية .
- ٨- الموافقات . للشاطبي .
- ٩- الاقتصاد في الاعتقاد . لأبي حامد الغزالي .
- ١٠- شفاء العليل . لابن القيم .
- ١١- المذاهب الإسلامية . لأبي زهرة .
- ١٢- إمتاع الأسماع . للمقريزي .
- ١٣- تاريخ ابن خلدون .
- ١٤- حياة الصحابة . للكاندهلوى .
- ١٥- سيرة ابن هشام .
- ١٦- شرح الشفا . للقارى .
- ١٧- الفكر الإسلامى الحديث . للدكتور محمد البهى .
- ١٨- إحياء علوم الدين . للغزالي .

- ١٩- الإنسان والأخلاق والمجتمع . جون كارل .
- ٢٠- بين الدين والعلم . الدكتور الغمراوي .
- ٢١- التشريع الجنائي في الإسلام . عبد القادر عودة .
- ٢٢- الجانِب الإلهي من التفكير الإسلامي . د . محمد البهي .
- ٢٣- الحضارة في الميزان . ارنولد توينبي .
- ٢٤- خريف الفكر اليوناني . عبد الرحمن بدوي .
- ٢٥- دستور الأخلاق في القرآن . د . محمد عبد الله دراز .
- ٢٦- الفلسفة الخلقية ونشأتها . د . توفيق الطويل .
- ٢٧- المسؤولية والجزاء . د . علي عبد الواحد .
- ٢٨- المنقذ من الضلال . للغزالي .
- ٢٩- الوجودية المؤمنة والوجودية الملحدة . د . محمد غلاب .
